

الحسن بن محمد الوزان الزيياتى
أو . ليون الأفريقى
٨٩٤ - ٩٦٢ هـ ؟ ١٤٨٨ - ١٥٥٤ م ؟

دكتور / عبدالرحمن حميدة

هو الحسن بن محمد الوزان الزياتى ، ولد فى غرناطة فى تاريخ يقع بين ١٤٨٨ و ١٤٩٥ م ، ويدل اسم عائلته « الوزان » على أن أحد أجداده كان يعمل موظفا فى مصلحة الموازين العامة .. أما لقبه الزياتى فيدل على الأرجح ، على اسم القبيلة العربية التى تحدر منها ، ويرد فى كتاب « نزهة الهادى » أنه عاش فى المغرب خلال القرن السادس عشر والسابع عشر عالمان يحملان نفس الكنية ، أولهما المفسر الشارح حسين الزياتى والثانى : سيدى الحسن الزياتى .

وفى أعقاب سقوط غرناطة فى الثانى من شهر كانون الثانى ١٤٩٢ م على يدى الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيزبلا ، أجلى المسلمون الذين رفضوا التخلّى عن دينهم ومن هؤلاء أسرة الحسن التى لجأت إلى مدينة فاس ، حيث احتلت مكانة مرموقة بعد إقامة قصيرة فى تونس . وأنفق الحسن سنّى حدائته فى فاس ودرس فيها حسب الطريقة التى كانت معهودة حتى عهد قريب فى مدارس فاس التقليدية وفى جامعة القرويين الإسلامية . وهكذا درس النحو والشعر والأدب والتاريخ والفلسفة والشريعة .

ويذكر أنه درس كتاب « عقائد النسفى » والظاهر أنه كان يعيش مع أسرته فى سعة ورغد ، فكانت أسرته تقضى فصل الصيف فى قصر سابق مهجور يقع على مسافة ستة أميال من فاس ، وكان أبوه يستأجر الأراضى المجاورة لهذا القصر ويعيش فى تلك العزلة المشجعة على البحث والدراسة .

وقد عمل خلال سنتين فى مارستان المجانين بفاس ، إذ تولى فيه خطة العدالة بأجر شهرى قدره ثلاثة دنائير مما أكسبه معرفة فى الطب ظهرت فى معجمه الذى وضعه من أجل الطبيب يعقوب بن سيمون ، الذى كان على الأرجح الطبيب الخاص للبابا باولو الثالث . وقد سافر فى أنحاء المغرب وكان فضوله العلمى يدفعه لاستنساخ كتابة شواهد قبور مشاهير الرجال ، وعمل منها كتابا قدمه لسقيق سلطان فاس . وتعطينا هذه التفاصيل فكرة عن مستواه الاجتماعى والغالب على الظن أن أباه كان موظفا كبيرا .

ورحل إلى تومبوكتو فى عام ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) وهو فى فى السابعة عشرة من عمره وكانت من أهم رحلاته ، إذ رافق أحد عميه ، الذى كان خطيبا مفوها ، فى سفارة أرسلها السلطان محمد إلى الملك السودانى الكبير اسكيا محمد توره . وشهد فيما بعد الكثير من

الأحداث الهامة التي كانت تعتور المغرب الذى أصبح يتعرض لهجمات البرتغاليين المتكررة على ثغوره .

وفي عام ١٥٠٨ م كان الحسن في خدمة مولاي محمد سلطان فاس الذى نهض لاسترداد ثغر أصيلا من أيدي البرتغاليين ، وفي ١٥١٢ سار مرة ثانية في ركب السلطان المذكور لتأديب الأعراب الذين كانوا يعيشون فسادا في بوادي المملكة ، كما شهد عن كثب سقوط آسفي بأيدي البرتغاليين سنة ١٥٠٨ . وبعدئذ قام بعدة رحلات هامة في الشمال الإفريقي ، وإلى القسطنطينية ومصر وجزيرة العرب حيث أدى فريضة الحج وبلاد أرمينية وشالي فارس . ويبدو أنه كان يقوم في البداية بوظيفة محاسب لدى التجار ، وذلك حسبما يحدثنا خلال رحلته الأولى إلى مصر ، حيث قام تجاه الساحل البرقاوى بشراء الأغنام والسمن ، ولما أراد شحنها بحراً إلى مصر اضطر للفرار خشية مباغثة القراصنة الأوروبيين . وقد تابر على التجوال في أرجاء المغرب قبل أن يقوم برحلته الثانية إلى بلاد السودان حيث زار تومبوكتو ومنها إلى مصر مارا ببلاد الهوسة ومملكة غاوغة في شرقي بحيرة التشاد وعاد إلى المغرب عن طريق البحر . وقد أمضى معظم أيام عامي ١٥١٤ و ١٥١٥ في المغرب في خدمة السلطان وبعض قواده الكبار .

ومما لاشك فيه أنه قام بمهام سياسية وربما تجارية ، وتزايدت أهمية هذه البعثات مع الزمن لأنه أصبح في وقت من الأوقات المفاوض بين سلطان فاس محمد البرتغالي وسلطان مراکش الناصر بن يوسف الهنتاتي وبين أمير السوس وحاحه الشريف أحمد الأعرج ، مؤسس أسرة السعديين الذى كان زميلا للحسن على مقاعد الدراسة في إحدى مدارس فاس .

وفي آذار ١٥١٤ م كانت له مقابلة مع حاكم بادية آسفي الذى كان خاضعا لحماية ملك البرتغال واسمه يحيى أو تعفوفت . وفي ١٥١٥ م كان له نشاط سياسى كبير وذلك بمناسبة الحملة التى قام بها سلطان فاس في منطقة دكالة على ساحل المحيط ، حيث استشف السلطان المذكور المزيد من كفاءاته وثقافته الواسعة فكلفه ببعثة سياسية إلى المشرق فذهب بسرعة إلى فاس في شهر آب ١٥١٥ .

وليس من المؤكد أنه قام بسفارة إلى السلطان سليم الأول العثماني كما يفترض بعض الباحثين ، إذ يذكر أنه اشترى وحده وبنفسه حبالا لخيمته من سوق مدينة معسكر بالجزائر .

وإذا كان يذكر أنه كان في مدينة رشيد المصرية أثناء وجود السلطان سليم فيها ، فهو لا يتكلم عن السلطان العثماني بإسهاب كما لو كان قد قابله فعلا .

ولكنه على كل حال لم يكن موظفا دبلوماسيا عاديا لأننا نراه في نفس الرحلة يتحدث مع حاكم مدينة دبدو ، ويقابل سلطان تلمسان أبا عبد الله محمد ، وفي الجزائر يستضيفه وجيه من أصل أندلسي كان قبل قليل موفدا من طرف سكان مدينة الجزائر ليتفاوض في أمر عقد هدنة مع الحكومة الأسبانية ، وبعدئذ يلتقى في « بجاية » مع أمير البحر التركي الشهير عروج ، شقيق خير الدين بربروس .

ويستمر الحسن في رحلته باتجاه تونس مروراً بمسيلة ، في منطقة الحضنة الجزائرية ، ويروى أنه بلغها ومعه زوج من الخيل ولاقى صعوبة في تأمين علفها من الشعير ، مما يدل على ضالة استعداده كسفير .

وعند وصوله إلى تونس لم يجد السلطان الذي كان في جولة في جنوبي البلاد ، ولما قصد بلاط السلطان المذكور لم يحظ باستقباله السلطان أبو عبد الله محمد . ولكن خلال إقامته القصيرة في بلاط هذا السلطان جمع قدرا لا بأس به من المعلومات عن بلاد تونس الشمالية ، ويعتقد أنه زار « قفصة » و « قابس » وهما آخر المدن التونسية التي رآها عيانا .

هذا ولانزال نهج المكان الذي أبحر منه الحسن قاصدا القسطنطينية ، وتاريخ سفره ، كما لا نعرف شيئا عن إقامته في أقطار المشرق سوى أنه كان في مصر في شهر حزيران ١٥١٧ م ، أى في رشيد في نفس الوقت الذي كان فيها السلطان سليم كما ذكرنا آنفا . وفي هذه الفترة أدى فريضة الحج وعاد إلى المغرب عن طريق مصر مبحرا من الإسكندرية ، وتوقف في طرابلس سنة ١٥١٨ م وهنا يبدأ باستعمال التأريخ الميلادي لأول مرة .

وأثناء توقف سفينته في « جزيرة جربة » سقط أسيرا في يد القرصان الصقلّي « بيتروبوفاديفليا » الذي اقتاده إلى إيطاليا . ولسبب ما لا نعلمه لم يفتد الوزان بالمال ، وقد يكون سبب ذلك الأساسي أن القراصنة رأوا فيه أسيراً غير عادي يمتاز بعلمه فنقلوه إلى نابولي ومنها إلى روما وقدموه مع زرافة هدية للبابا ليون العاشر ، واسمه السابق « حنا دوميديتشي » . وقد استقبله البابا المذكور استقبالا طيبا جدا ، وهو الحبر المستنير الذي كان يحمي ويشجع أرباب الفنون والآداب والعلوم . وقد ناشده البابا أن يعتنق النصرانية إلى أن تم له ذلك على أيدي ثلاثة أساقفة في « قصر سانتانج » حيث كان الأسير العظيم يقضي مدة إقامة إجبارية امتدت عاما كاملا .

وأخيرا جرى تعميم الحسن بن محمد الوزان الزيياتي بيد البابا نفسه في كنيسة القديس بطرس في روما بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٥٢٠ وصار اسمه « جوهانيس ليود وميديشي » وهو اسم البابا سابقا ، وسمى نفسه بعد ذلك « جان ليون غرانا تينو » وبالعربية « يوحنا الأسد الغرناطي » واحتفظت الأجيال التالية باسم « حنا ليون الإفريقي » وهو الاسم الذي أطلقه عليه « راموزيو » ناشر كتابه « وصف أفريقيا » استنادا إلى التسمية التي اشتهر بها بين معاصريه .

هذا ولا نعرف الكثير عن إقامته في إيطاليا ، وكل ما وصلنا أنه كان يدرس اللغة العربية في مدينة بولونية الإيطالية ، وأنه كان يتردد على رجال الفكر والأدب ، ولكن هل انتهت حياته في روما قبل عام ١٥٥٠ م كما تذكر مقدمة النشرة الرابعة لكتابه التي أصدرها راموزيو عام ١٥٥٠ ؟ أم هل عاد إلى تونس كما عبر عن رغبته تلك بصورة صريحة في كتابه ابتداء من عام ١٥٢٥ ؟ وهل عاد إلى حظيرة الإسلام كما تؤكد ذلك بعض النصوص ؟ وهذا هو الأرجح .. كما يؤيد ذلك غالبية المستشرقين الطليان . والواقع لم يكن سنه يتجاوز الأربعين عاما عندما حرر كتابه « وصف أفريقيا » ، وقد كان نشاطه الثقافي واسعا جدا استنادا إلى المشروع الذي خطط له والذي يعرضه علينا في نهاية كتابه الثامن وهو كتاب عن وصف أوربا ، ثم عن الجزء الآسيوي الذي زاره ، ثم وصف أفريقيا ، كما أنه شرع ، أو ربما أنجز بكتابه « الوجيز في التواريخ الإسلامية » الذي كثيرا ما تكلم عنه مما يبعث على الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد صدر فعلا ، كما كتب « تاريخ أفريقيا الحديث » و « علم البيان العربي » و « كتاب النحو العربي » .. الخ .

وحتى الوقت الحاضر لم يتم العثور إلا على النص العربي لكتابه « المعجم المتعدد اللغات » وقد كتب في بولونية ويحمل تاريخ كانون الثاني ١٥٢٤ والموجود في مكتبة الأسكوريال بمدريد .

ومما لا ريب فيه أن لكتابه « تاريخ أفريقيا الحديث » أهمية فريدة بالنسبة لمؤرخى تلك الفترة الشديدة الاضطراب . وقد ظل كتاب الحسن ، الجغرافى ، مرجعا أساسيا موثوقا خلال مدة ثلاثة قرون من الزمن .. إذ ذاع صيت كتابه وعرفه العلماء المختصون منذ عام ١٥٢٩ م ، فقد كان المرجع الجغرافى الأساسى ، ولاسيما بالنسبة للمشتغلين بعلم الخرائط الذين استفادوا من مصادر أخرى إلى جانبه إذ كان عصره عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى . ولايزال

كتابه يثير دهشة الكثيرين لدقة بعض التفاصيل التي يوردها الحسن فضلا عن ملاحظاته التي تتم عن روح عصرية متفتحة رغم تكوينه العلمي التقليدي . وكان يتصف بروح النزاهة والتجرد وهو لا يضمركرها إلا للأعراب الذين عزي إليهم مسئولية تدمير بلاد المغرب العربى من الداخل ، تماما حسب رأى ابن خلدون ، مما هيا البلاد للغزو الأوربي .

وفي هذا المجال لا نجد مندوحة من توضيح أمر هام وهو أن « عرب » القرن السادس عشر لم يكونوا سوى جماعات بدوية تنحدر من قبيلتي « بنى هلال وسليم » الذين حاول فاطميو مصر التخلص من فوضاهم ، فدفعوا بهم نحو الغرب في حدود عام ١٠٥٠ ميلادية . وكانوا عبارة عن محاربين مرتزقة أو قطاع طرق ، والدور الإيجابي الوحيد الذى ينسب إليهم هو تعريب المغرب بالعمق .

وإذا كان كتاب الحسن يتصف بالكثير من المزايا ، فيقدم لنا وثيقة ثمينة للغاية ، فإنه لا يخلو من كثير من المآخذ الناجمة عن أسباب عدة . والواقع لقد ارتكب أخطاء جغرافية وتاريخية فريدة من نوعها ، إذ نسب لنفسه روايات غير صحيحة استقاها من سفار وثق بهم ، أو معلومات غير وثيقة ، وأحيانا كان لا يراجع ما سبق أن كتبه بحيث لا يمكن متابعة نصوص كتابه دون شرح مفصل .

وأخيرا يقول المستشرق آلدوميلي الإيطالي : إن إقامة الحسن الوزان بمعزل عن محيطه الأصلى كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه . ويروى راهب معاصر اسمه « فيد ماتشتات » أن ليون غادر روما بين ١٥٢٨ أو ١٥٣٠ (٩٣١ هـ) قاصدا تونس فعاد إلى الإسلام ومات فيها سنة ٩١٤ هـ أى حوالي ١٥٤٥ م وربما ١٥٥٤ ليحظى بالوفاة في أرض الإسلام المقدسة وفي حمى دينه الحقيقي ، ونفتقد آثاره من ذلك الحين ، ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته على الضبط .

وإذا كان كتاب « وصف أفريقيا » قد نشر على يد راموزيو سنة ١٥٥٠ م (٩٥٧ هـ) في مدينة البندقية أى قبل ٤٤٢ عاما هجريا ، أو بعد فراغ الوزان من تأليفه بمدة لا تزيد عن ٢٤ عاما ، باللغة الإيطالية ، فإن التعريف بالحسن الوزان الزياتي في الأوساط العلمية العربية قد جاء - ويا للأسف - متأخرا جدا . فقد ورد ذكره لأول مرة في مجلة المقتطف المصرية ضمن « بحث الجغرافية وجغرافي الإسلام » ج ٧ ، ص ٥٩٣ - ٧١٣ ، ضمن خطبة ألقاها سليم ميخائيل شحادة ، في المجمع العلمى الشرقى ، في جلسة أذار ١٨٨٣ م ،

كما خصص له الباحث المغربي ، محمد المهدي الحجي (أو الحجوى ؟) مقالة بالفرنسية نشرت في مجلة هسييريس ، الصادرة عن دار كولان ، في باريس ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ٩٨ ، مثلما تعرض له الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه « الطب والأطباء في المغرب » المطبوع سنة ١٩٦٠ ، وذكره بإيجاز أحمد أبو أسعد في كتاب « أدب الرحلات » المنشور في بيروت سنة ١٩٦١ في جملة منشورات دار الشرق الجديد . وفي سنة ١٩٦٢ كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان مقالة عن الحسن الوزان أو ليون الإفريقي في مجلة العربي الكويتية ، عدد ٤٣ ، وبعد عشرة أعوام ، عادت المجلة المذكورة فنشرت في عددها ١٦٣ مقالة ثانية تحت عنوان « الحسن ابن محمد الوزان ، رحالة عربى ، ومصنف أجنبى » للدكتور جمال زكريا قاسم ، من جامعة الإسكندرية .

وفي سنة ١٩٧٠ كتب زميلنا الأستاذ الدكتور مصطفى مسعد بحثا يقع في ٢٥ صفحة في مجلة جامعة القاهرة في الخرطوم ، العدد الأول ، تحت عنوان : الحسن بن محمد الوزان (ليو الإفريقي) ، أضواء على رحلته في بلاد السودان ومصر . وفي عام ١٩٧٢ م كتب المرجوم الأستاذ شوكت الشطي ، أحد أساتذة كلية الطب في جامعة دمشق ، والذي توفي في صيف ١٣٩٨ هـ - بحثا يحمل عنوان « نظرات إلى ثقافة الغرب الطبية في الحضارة الأندلسية » خصصه للحسن الوزان . ويشرف الأستاذ الدكتور/محمد السيد غلاب ، مدير معهد الدراسات الأفريقية ، على رسالة ماجستير عن الحسن الوزان والتي ينتظر أن تتم مناقشتها في أواخر هذا العام .^(١)

ويكتفى أن نورد هنا بعض الشواهد من كتابات العلماء الأوروبيين للتدليل على قيمة كتاب الوزان على الصعيد العلمى ، « إذ ظل كتابه - حسب قول توماس ديكين - المرجع العمدية طيلة قرنين من الزمن في أوروبا ، في كل ما يختص بالأقطار العربية الأفريقية ودول شعوب أقطار الساحل أى الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى » . ويقول العالم الألمانى هارتمان بعد قرنين من الزمن من ظهور كتاب « وصف أفريقيا » « إن ما يتصف به مصنفه من ميزات أمر معروف للجميع ، ولن أترد في تكرار ما قاله الباحث قبل من أن كتابه كنز من الذهب ، ولولا وجوده بين يدي لحفيت على أشياء كثيرة » ، ويقول شيفر في أواخر القرن الماضى أن ما يورده ليون الإفريقي من تفاصيل في وصف المغرب تتميز بالدقة الشديدة ، بل لقد أُنشئت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى في المواضيع التى أثارت الشك فيما مضى .

هذا ولا يزال الكثير من جوانب حياة الحسن الوزان غامضا ، ولا سيما عن فترة إقامته في إيطاليا ، وعلى الأخص بعد عودته إلى تونس . فالمعروف أن ولادته كانت سنة ٨٩٤ هـ ، وأنه سقط بالأسر عام ١٥١٨ م (٩٢٦ هـ) وكان عمره حينذاك في حدود ٣٢ سنة ، وأنه ألف كتابه « وصف أفريقيا » لقرائه الطليان سنة ١٥٢٦ م ، أى بعد ثمانية أعوام من الإقامة في إيطاليا ، درس خلالها الإيطالية واللاتينية ، وقرأ كتاب بلين الرومانى الشهير ، وألم بالثقافة الأوروبية التى كانت تعيش عصر النهضة » ويبدو أن تعلمه الإيطالية واللاتينية لم يكن عسيرا عليه ، إذ يرى كراتشكوفسكى أنه كان يعرف اللغة الأسبانية التى كانت بالنسبة له لغة مفهومة ، لأنه أمضى طفولته في غرناطة التى غادرها بعد سقوطها بأيدي الملكين الكاثوليكين سنة ١٤٩٢ م

هذا كما تشير أكثر المصادر التى أوردناها إلى أنه استطاع الإفلات من إيطاليا ، رغم عتقه بين عامي ١٥٢٨ - ١٥٣٠ عائداً إلى تونس ، بعد إقامة في الغرب لم تتجاوز عشرة أعوام أو اثني عشر عاما . ويدعم هذه الرواية كاتب معاصر اسمه فيد ماتستات الذى يقول : إن الوزان مات في تونس سنة ٩٤٢ هـ - عن عمر يناهز الخمسين عاما . ويقول آلدوميلي « إن إقامة الحسن الوزان عثر عن محيطه الأصلي كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه ، والواقع أنه عاد إلى تونس سنة ١٥ م ليحظى بالوفاة في أرض الإسلام المقدسة وفي حمى دينه الحقيقى ، ونفتقد آثاره منذ ذلك الحين .. ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته » (ترجمة آلدوميلي ص ٥٣٣) ، مما يدل على أن إقامته في إيطاليا امتدت على فترة تناهز اثنين وثلاثين عاما ، أى عاد إلى تونس وعمره ٦٤ سنة تقريبا .

ويقول كراتشكوفسكى : « وعقب فراغه من تصنيف كتابه بقليل ، وربما كان ذلك في عام ١٥٢٨ تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعا إلى أفريقية وما لبث أن اطرح المسيحية إلى دينه القديم ، وقد توفى الوزان على ما يبدو بتونس في عهد آخر ملوك بني حفص ، وذلك عام ١٥٥٢ م ، عن عمر يناهز الستين عاما » .



« نصوص مختارة من كتابه وصف أفريقيا »

أ - أصل اسم أفريقية

يطلق على بلاد أفريقيا اسم أفريقية باللغة العربية ، وجاءت من كلمة فرق . وهناك قولان في أصل هذه التسمية . فالأول يستند على أن هذا الجزء من العالم ينفصل عن أوربا وعن جزء من آسيا بواسطة البحر الأبيض المتوسط . والقول الثاني أن هذا الاسم اشتق من « أفريقوس » وهو ملك بلاد العرب السعيدة ، في اليمن ، وهو أول من قدم إليها واستوطنها فهذا الملك ، الذي انكسر في معركة مع ملوك آشور ، اضطر في أثرها إلى الهرب من وجههم ولم يستطع العودة إلى مملكته فعبّر النيل بسرعة وتابع طريقه غربا ، ولم يتوقف إلا في ضواحي قرطاج . ولهذا ينحصر اسم أفريقية بمنطقة قرطاج ذاتها في حين تطلق تسمية المغرب على مجمل أفريقيا .

والواقع هو أن الرومان أطلقوا كلمة آفر وجمعها آفري على سكان إقليم قرطاج البوني ، وذلك عندما اجتاحتها مدينة « قرطاج » سنة ١٤٦ ق . م ، ودمروا المدينة المذكورة ، وأوجدوا المقاطعة الأفريقية ، أو إقليم الآفر ، وذلك اختصارا لكلمة أفريقيا ، التي أصبحت أفريقية على ألسنة العرب ، وهو الاسم الذي كانوا ولا زالوا يقصدون به القسم الشمالى من القطر التونسي ، في حين أطلقوا اسم المغرب على كل المنطقة المحصورة بين ضفاف النيل والمحيط الأطلسي .

ب - حدود أفريقيا :

استنادا إلى أقوال العلماء الأفارقة والجغرافيين ، فإن بلاد أفريقيا يحدها النيل من الشرق ، ابتداء من روافد بحيرة غاوغة في الجنوب^(١) حتى مصب النهر المذكور في البحر الأبيض المتوسط شمالا ، وتبدأ أفريقيا في الشمال من مصب نهر النيل وتمتد غربا حتى أعمدة هرقل .^(٢) وتمتد من هذا المضيق غربا حتى « نون » وهو آخر موقع من ليبيا على المحيط .^(٤) وتبدأ أفريقيا جنوبا من نون وتمتد على طول المحيط الذى يطيف بها كلها حتى صحراء غاوغة .^(٥)

أقسام أفريقيا :

تنقسم أفريقيا حسب أقوال المؤلفين المعاصرين إلى أربعة أجزاء هي : بلاد البربر ،
نوميديا ، ليبيا ، وبلاد الزنوج .

فبلاد البربر تبدأ شرقا من جبل « معيز » وهو آخر نتوء من جبل الأطلس على مسافة
٣٠٠ ميل من الإسكندرية .^(٦)

أما من الشمال فيحدها البحر الأبيض المتوسط ، ابتداء من جبل معيز حتى أعمدة
هرقل ، وتبدأ حدودها غربا من هذا المضيق ، وتساير ساحل المحيط حتى آخر بروز من جبل
الأطلس ، أى حتى النهاية الغربية لهذه الجبال ، وعلى حافة المحيط ، فى اتجاه المكان الذى
تقع فيه مدينة مسة ، وتنتهى جنوبا قرب جبل الأطلس ، أى على سفح هذه الجبال التى تطل
على البحر الأبيض المتوسط ، وهذا هو أشرف قسم فى أفريقيا ، أى القسم الذى يقطنه أناس
من العرق الأبيض التى يحكمها العقل والقوانين .

أما القسم الثانى ، فهو الذى يسميه اللاتين نوميديا ، والعرب بلاد الجريد ، أى البلاد
التي تجود فيها أشجار النخيل .^(٧)

هذا وتبدأ « نوميديا » إلى الشرق من الواحات وهي مدينة تقع على مسافة ١٠٠ ميل من
مصر ،^(٨) وتقتد غربا حتى نون ، الواقع على المحيط ، وتبلغ شمالا جبل الأطلس على سفحه
الشمالى ، وتتاخم رمال الصحارى الليبية من الجنوب ، ويطلق « العرب » نفس الاسم على
كل هذه الأصقاع التى تنتج التمور لأن لها جميعا نفس الموقع .

أما الجزء الثالث الذى يدعى « ليبيا » باللاتينية ، فليس له من اسم باللغة العربية
سوى الصحراء ،^(٩) ويبدأ شرقا من جوار الواحات ويمتد غربا إلى المحيط ، وتتاخم ليبيا من
الشمال نوميديا إلى بلاد النخيل ، وتتاخم من الجنوب بلاد السودان ، بدءا من مملكة والاته من
الشرق والواقعة على المحيط .^(١٠)

والقسم الرابع ، أى بلاد السودان ، فيبدأ شرقا من مملكة غاوغة ويستمر غربا حتى مملكة
ولاته وتتاخم بلاد السودان من الشمال الصحراء الليبية ، وتنتهى جنوبا على المحيط فى أمكنة
نجهلها ..^(١١) ولكن وصلت إلينا معلومات عنها من التجار الذين يأتون من تلك المناطق إلى
مملكة تومبوكتو . ويمر نهر النيجر من أواسط بلاد الزنوج ، وينشأ فى صحراء تدعى صحراء سو
حيث يخرج من بحيرة كبيرة ..^(١٢) واستنادا إلى ما يعتقده جغرافيونا المعاصرون ، فإن

النيجر هو فرع من النيل يغور في الأرض ويخرج منها كي يؤلف هذه البحيرة . ويقول البعض إن هذا النهر ينبع من الغرب في جبال ،^(١٣) ويجرى في اتجاه الشرق كي يتحول إلى بحيرة ، وهذا الزعم غير صحيح . فقد ركبنا متن هذا النهر من شرقي تومبوكتو وواكبنا مسيرة مياهه حتى مملكة غينيا ..^(١٤) وحتى مملكة مالي ، وتقعان إلى الغرب من تومبوكتو ..^(١٥) وأجمل بلاد السودان هي تلك التي تمتد بمحاذاة نهر النيجر . ولنلاحظ أنه استنادا إلى ما يقوله الجغرافيون ، فإن قسما من بلاد السودان ، التي يخترقها نهر النيل في قسمها الغربي تمتد شرقا حتى نهر الهند وتصل في بعض نقاطها إلى البحر الأحمر من الشمال ، أى في الجزء الواقع ما وراء المضيق الذى يفصل هذه البلاد عن بلاد العرب السعيدة .^(١٦) ولا يمكن اعتبار هذا القسم تابعا لأفريقيا لأسباب عديدة وردت في مؤلفات طويلة . ويطلق اللاتين على هذه البلاد اسم أثيوبيا التي يأتي منها رهبان من ذوى الوجوه الموسومة بالنار . ويحكم هذه البلاد زعيم هو نوع من بطريق يطلق عليه الطليان اسم « الكاهن يوحنا » والقسم الأعظم من هذه المنطقة يقطنه نصارى ، ولكن هناك أمير مسلم يملك فيها منطقة واسعة .^(١٧)

ممالك في أفريقيا

تقسم بلاد البربر إلى أربع ممالك :

الأولى : هي مملكة مراكش التي تقسم بدورها إلى سبع مناطق هي : حاحة ، السوس ، مراكش ، جزولة ، هسكورة ، حسكورة ، وتادلة .

الثانية : هي مملكة فاس التي تضم عددا مماثلا من المناطق وهي : تامسنة ، إقليم فاس ، أزغار ، الهبط ، الريف ، غارت ، والحوز .

والمملكة الثالثة : هي مملكة تلمسان التي تشتمل على ثلاث مناطق هي : الجبال ، وتينس ، والجزائر .

والرابعة : هي مملكة تونس التي تنضوى تحتها أربع مناطق هي : بجاية ، قسنطينة ، طرابلس الغرب ، والزاب .. وتنتسب المنطقة الأخيرة في معظمها لنوميديا .

وقد كانت منطقة بجاية دوما موضع نزاع ، فتارة كانت تتبع ملك تونس ، وتارة أخرى يختص بها ملك تلمسان ، والواقع أنها تؤلف في أيامنا هذه مملكة مستقلة إلى أن سقطت عاصمتها بيد الكونت بيار نافارو لحساب الملك فرديناند الأسباني ..^(١٨)

مدينة آسفى :

آسفى مدينة بناها قدماء الأفارقة على ضفاف المحيط ، وتحوى حوالي أربعة آلاف أسرة والسكان فيها متكاتفون ، ولكنهم يفتقرون للدماثة . وقد كان فى آسفى سابقا عدد كبير من الصناع وحوالى مائة عائلة من اليهود . وتعتبر أراضيها المجاورة خصبة جدا ، ولكن الناس ليسوا حاذقين ولا يعرفون كيف يزرعونها حتى ولا كيف يفرسون فيها الكرمة . ولكنهم يملكون مع ذلك بضعة بساتين صغيرة تنتج الخضار . وعندما أخذت سلطة ملوك مراكش بالانحطاط ، استولى على الحكم فى آسفى أسرة تدعى عائلة فرهون ، وفى أيامى^(١٩) كانت فى يد أمير باسل اسمه عبد الرحمن الذى عمد إلى قتل أحد أعمامه كي يستولى على السلطة .^(٢٠)

سقوطها بيد البرتغاليين :

« على أثر نزاع عائلى شديد التعقيد ، يسرد لنا محمد الحسن الوزان تفاصيله بدقة ، استطاع البرتغاليون أن يستولوا على آسفى بعد أن بقيت تحت حمايتهم لفترة من الزمن » . فى غضون ذلك نصح بعض التجار البرتغاليين - الذين لم يكونوا قلة فى آسفى - أقول نصحوا ملكهم بأن يجهز أسطولاً يستطيع الاستيلاء على المدينة بسهولة . غير أن الملك لم يعزم على القيام بهذه الحملة إلا بعد أن أقنعه التجار المذكورون بأن سكان آسفى منقسمون إلى عدة أحزاب ، وأنهم - أى التجار - استطاعوا بفضل الهدايا أن يقيموا علاقات وثيقة مع رئيس أحد الأحزاب المذكورة ، وعقدوا اتفاقاً معه بحيث أصبح من الممكن الاستيلاء على المدينة دون صعوبة وبأقل التكاليف . وتوصل هؤلاء إلى إقناع هذا الزعيم بالسماح لهم ببناء حصن على ساحل المحيط كي يخزنوا فيه بضائعهم بصورة تدعو للاطمئنان ، بدعوى أنهم فقدوا قسماً كبيراً من أرزاقهم على أثر موت الأمير السابق مثلما تخربت بعض مخازنهم ونهبت .

وهكذا شيدوا ثكنة حصينة للغاية ونقلوا إليها بالسر مدافع^(٢١) وبواريد ضمن براميل الزيت الضخمة ودخل طرود البضاعة ولم تكن السلطات المحلية تطلب منهم سوى الرسوم . وعندما امتلك البرتغاليون ما يكفيهم من أسلحة الهجوم والدفاع راحوا يبحثون عن مناسبات مختلفة لخلق الاضطرابات وفتح باب النزاع مع المسلمين .

وهكذا بينما كان غلام أحد هؤلاء التجار يشتري لحماً أثار حفيظة الجزار الذى نفذ صبره

وصفحه على وجهه ، فاستل الولد خنجره وأغمده في صدر المسكين الذى توفى حالا . والتجأ القاتل الى الحصن البرتغالى . وقد أدى موت هذا الرجل إلى هياج السكان الذين امتشقوا السلاح ، وانقضوا على الحصن البرتغالى لتخريبه وتقطيع أوصال الذين فيه ولكن هؤلاء تركوا الهائجين يقتربون أكثر فأكثر وراحوا يطلقون عليهم نيران مدافعهم ويواردهم وسهام أقواسهم الفولاذية .

ولم يلبث المغاربة أن هربوا مذعورين ، وفقدوا أكثر من مائة قتيل بفعل هجومهم المرتجل ، ولكن هذا لم يمنعهم من محاصرة الحصن مدة بضعة أيام ، وعندها ظهر الأسطول القادم من لشبونة والذى جهزه الملك لهذه الغاية ، وكان مزودا بمختلف أنواع الأسلحة ويقطع ضخمة من المدفعية فضلا عن مؤن ذخيرة ، وعلى ظهره خمسمائة جندي من المشاة ومائتي فارس^(٢٢) وهكذا وبعد أن بلغ الذعر مبلغه من المغاربة أدخلوا المدينة ولجأوا إلى جبال بنى ماجر^(٢٣) . ولم يبق فيها سوى أسرة الزعيم الذى وافق على بناء الثكنة الحصينة مع بعض أتباعه . واحتل قائد الأسطول المدينة واستدعى الزعيم المذكور واسمه يحيى ، وأوفده إلى ملك البرتغال الذى خصص له معاشا طيبا ومنحه عشرين مملوكا . وبعدئذ أعاده ملك البرتغال كي يحكم البوادي المجاورة لآسفى ، لأن قائد الأسطول^(٢٤) لم يكن يعرف عادات هذا الشعب الجاهل وطريقة التعامل معه ، ومنذ ذلك الوقت ظلت آسفى خاوية وخربت منطقتها .^(٢٥)

لقد أسهبت نوعا ما في هذه القصة بقصد تبيان سبب خراب آسفى وكل منطقة حاحة بسبب الأحزاب السياسية . وعندما ذهبت إلى آسفى كنت ولدا في سن الثانية عشرة ، ولكن بعد أربعة عشر عاما أتيت لى مقابلة حاكم بوادي المنطقة المعتمد من قبل ملك فاس ، ومن الشريف أمير السوس وحاحة وكان حينئذ قرب مراكش مع جيش مؤلف من خمسمائة فارس برتغالى وأكثر من ٢٠٠٠ فارس عربي ، وكان يجيب كل الاتاوات وضرائب المنطقة لحساب ملك البرتغال وكان ذلك في عام ٩٢٠ هـ أو ١٥٢٠ م ، كما ذكرت ذلك بالتفصيل في كتاب التواريخ .

الرباط :

الرباط مدينة كبيرة شيدها المنصور في الأزمنة الأخيرة ، وهو ملك وخليفة مراكش . ويمر

نهر أبو الرقراق من جانبها الشرقى وعندها يصب في البحر . وقد بنى رباط المدينة عند مصبه فيحدها من طرف النهر ومن الطرف الآخر البحر .

وتشابه هذه المدينة مراكش من وجهة النظر إلى أسوارها وعمائرها ، ولأن المنصور بناها لغرض معين ، ولكنها تبدو صغيرة جدا بالموازنة مع مراكش . وإليك سبب تأسيس الرباط . فقد كان المنصور يحكم حينذاك كل بلاد غرناطة وجزءا من أسبانيا . ولما كانت هذه البلاد بعيدة جدا عن مراكش ، فقد رأى الملك أنه في حالة مهاجمتها من قبل النصارى فلن يكون من السهل عليه النهوض لنجدتها .

وقد نصحه البعض بأن يقيم في سبتة وهى مدينة واقعة على مضيق جبل طارق . ولكن الملك لم ير في هذا الموقع مدينة قادرة على تأمين معيشة جيش مرابط خلال فترة تمتد على ثلاثة شهور أو أربعة بسبب جذب الأرض في هذه المنطقة وفقرها . كما توقع أيضا بأن هذا لن ير دون أن يسبب استياء أهالى سبتة بسبب إقامة الجند بين ظهرائهم ، ولوجود موظفي الحاشية الملكية . وهكذا بنى مدينة الرباط خلال بضعة أشهر، وزودها بالمدارس والمساجد والقصور المتنوعة الأغراض والبيوت والدكاكين والحمامات والصيدليات . كما بنى في خارج الباب المطل على الجنوب برجاً يشابه برج مراكش ،^(٢٦) وله درجات أكثر عرضا بكثير إذ يستطيع ثلاثة من الخيالة أن يصعدوا عليه على صف واحد ، ويقال : إنه من الممكن رؤية سفينة وهى في عرض البحر على مسافة كبيرة من الساحل ، واعتقد أن هذا البرج يعتبر نظرا لارتفاعه من أجل الأبنية التى يمكن للعين أن تراها .

ورغب الملك أن يقيم في المدينة العديد من الصنائع والعلماء والتجار ، مثلما أمر أن ينال كل مواطن فيها علاوة تتناسب مع الرّيح الذى تحقّقه له مهنته . وما إن شاع هذا القرار حتى تقاطر عليها أناس من كل الطبقات ومن كل الحرف ، حتى إن الرباط أصبحت في وقت قليل من أجل وأغنى مدن أفريقيا .. لأن سكانها كانوا يتمتعون بدخل مضاعف أى من العلاوة ومن التجارة مع الجند وأفراد البلاط الملكى . وبالفعل راح المنصور يقيم في هذه المدينة بدءا من أول شهر نيسان حتى أيلول (سبتمبر) . ولما كانت هذه المدينة قد قامت في مكان يخلو من الماء الجيد لأن الماء البحر يتسلل إلى النهر بفعل المد الذى يصعد لمسافة عشرة أميال في اتجاه العالية .. ونظرا للملحة مياه الآبار فقد جر المنصور إليها ماء عين تقع على مسافة اثني عشر ميلا فوق حنايا متقنة البناء ، قائمة فوق أقواس تماثل تلك التى تشاهد في كل إيطاليا ، ولاسيا بجوار روما .

وتتفرع الحنايا الرئيسية إلى عدة فروع تسوق بعضها المياه إلى المساجد والأخرى إلى المدارس والقصور الملكية ، كما أقيمت موارد عامة في كل الأحياء .. (٢٧)

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة بالانحطاط ؛ بحيث لم يبق منها قائما سوى عشرين . وقد تخربت الحنايا ، وتقطعت بفعل حروب الملوك المرينيين مع أسرة المنصور ، وتبدو الرباط اليوم في أسوأ وضع عرفته ، وأعتقد أنها لا تضم أكثر من ٤٠٠ بيت قرب الرباط ، فضلا عن بعض الحوانيت الصغيرة .

هذا كما أنها مهددة بالسقوط على الأرجح بأيدي البرتغاليين . فعلا كان كل ملوك البرتغال السابقين يَحْلُمُونَ في احتلالها ، لاعتقادهم بأن مجرد امتلاكها سيجعل احتياج مملكة المغرب ميسورا ، ولكن ملك فاس زود هذه المدينة بذخائر ومؤون كبيرة ويساندها قدر استطاعته .

لقد قصدت هذه المدينة وأشفتت عليها عندما تصورت ما كانت عليه في الماضي وما آلت إليه حالتها اليوم .

مدينة سلا :

سلا مدينة صغيرة بناها الرومان قرب نهر أبي الرقاق على مسافة ميلين تقريبا من ساحل المحيط ، وعلى ميل واحد من الرباط ، (٢٨) ولكن تخربت هذه المدينة بصورة جزئية خلال حرب المرتدين من بغوراته . ومن ثم أعاد المنصور بناء أسوارها وشيد فيها مارستانا بديعا وقصرا لسكنى الجند ، مثلما شيد فيها جامعا رائعا يحتوى على قاعة فخمة للصلاة ازدانت بالرخام المجزع وبالفسيفاء وبنوافذ مزدانة بالزجاج الملون . وقد أوصى وهو على فراش الموت بأن يدفن في الجامع المذكور ، وبعد وفاته في مراكش (٢٩) نقل جثمانه حيث ووري التراب فيه حسب وصيته . ووضع على قبره شاهدتان من رخام الأولى فوق رأسه ، والثانية فوق قدميه وقد نقشت عليها أبيات شعر رقيقة المعاني جدا هي رثاء مؤثر نظمها شعراء عديدون . وقد احتفظ كل أمراء هذه الأسرة بعادة دفنهم في ردهة هذا المسجد ، وعمل الملوك المرينيون نفس الشيء في أبهى فترة حكم أسرته ، وقد دخلت هذه القاعة وأحصيت ثلاثين قبرا لهؤلاء الأمراء ، ونقلت كل كتابات شواهدا وذلك في العام ٩١٥ للهجرة .. (٣٠)

مدينة فاس : العطارون وأرباب المهن الأخرى

لقد أسهب محمد الحسن الوزان في وصف فاس التي كانت في أيامه أزهى مدن المغرب إذ كانت قاعدة الملك ، ويصور لنا بكل أمانة ودقة حياة الناس في كل تفاصيلها ونشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وإلى الشمال من هذه القلعة^(٢٨) قام سوق العطارين الذين يشغلون دربا ضيقا فيه مائة وخمسون دكانا . وينغلق الطريق من نهايته بباين بديعين لا يقل تحصينهما عن كبرهما . ويوظف العطارون حراسا يتجولون ليلا مع فوانيس وكلاب وأسلحة . وهنا تباع منتجات الطب والعطارة ، ولا تجهز هنا الشرابات أو العقاقير أو المعاجين العسلية . فالأطباء يركبون هذه المواد في منازلهم ويرسلونها إلى حوانيتهم حيث يبيعها موظفونهم بناء على وصفة طبية مكتوبة . وتكون غالبية دكاكين الأطباء محاذية لدكاكين العطارين . غير أن معظم أبناء الشعب لا يعرفون الأطباء ولا الطب . وللعطارين دكاكين بديعة كثيرة الزخارف ولها سقفوف جميلة جدا وخزائن .. وأعتقد أنه لا يوجد في سائر أنحاء العالم سوق للعطارين يماثل سوق عطاري فاس . والحقيقة هي أنني رأيت سوقا كبيرا للعطارين في مدينة طوريس في بلاد العجم ولكن الحوانيت كانت هناك عبارة عن أنفاق مظلمة نوعاً ما رغم أناقة بنائها بالأعمدة الرخامية ، ويعجبنى سوق فاس أكثر بكثير من سوق طوريس نظرا لأنه عملى بسبب تنويره على خلاف الآخر أى سوق طوريس المظلم إلى حد ما . وبعد العطارين نجد صناع الأمشاط من خشب البقص أو من خشب آخر سبق لنا الكلام عنه .

وإلى الشرق من سوق العطارين نجد صناع الإبر الذين يشغلون خمسين دكانا . ومن بعدهم تأتي دكاكين الخراطين ، وهى أقل عددا ؛ لأنها منعزلة في الأسواق ومبعثرة بين دكاكين أخرى يشغلها أناس من مهن مختلفة . وبعدئذ تأتي دكاكين باعة الطحين، وباعة الصابون، وباعة المكناس الذين يحاذون سوق العقادين ، أو باعة الخيوط . ولكن عدد هؤلاء لا يتجاوز العشرين لأن بقيتهم موجودة في أماكن أخرى كما سنرى ذلك . وبين باعة القطن وباعة الخضار نجد أولئك الذين يصنعون اللحف والصقارين وباعة لوازم الحيام . وعلى مسافة غير بعيدة من هؤلاء نجد تجارا آخرين يبيعون الطيور الصالحة للأكل ، والعصافير المغردة ولكن عدد دكاكينهم قليل ويسمى هذا المكان سوق الطيارين .

وتباع حاليا فى معظم هذه الدكاكين حبال القنب والخيوط . وبعدئذ نجد صناع القباقيب التى يلبسها الوجهاء عندما تكون الشوارع موحلة . والحقيقة تبدو هذه القباقيب بديعة الصنعة ، مع زخارف ومزودة برقائق الحديد فى أسفلها فضلا عن سيور جلدية مطرزة بالحريز . ولا يرضى أكثر الأشراف فقرا أن يلبس قبقابا يقل سعره عن دوكا واحد ، وهناك قباقيب يبلغ سعرها دوكاتين ، ويصل سعر بعضها إلى عشر دوكات ، بل وحتى ٢٥ دوكا .. (٢٢) وتصنع هذه القباقيب عادة من خشب التوت الأسود أو الأبيض ، ولكن يصنع بعضها من خشب الجوز أو خشب البرتقال أو خشب العناب . وتكون القباقيب المصنوعة من النوعين الأخيرين من الخشب أكثر جمالا وأناقة ولكن قباقيب خشب التوت تدوم مدة أطول .

وعلى مسافة ما نرى صناع الأقواس الفولاذية وهم من مسلمى أسبانيا ولا يتجاوز عدد دكاكينهم العشرة . وبعدئذ تنتشر دكاكين صناع المكناس الذين يصنعون مكناسهم من نخيل الدوم ، كذلك التى تصدر من صقلية إلى روما . ويجلب صناع المكناس بضاعتهم إلى المدينة فى قفاف كبيرة ويقايضونها مقابل النخالة أو الرماد أو ببعض الأحذية المثقوبة . وبعد ذلك نجد دكاكين الحدادين الذين يصنعون المسامير ، وبعدهم نجد الذين يصنعون أوعية كبيرة من الخشب على شكل سطل ، ولكن سعتها تعادل « برميلا » ، (٢٣) ويصنعون أيضا مكاييل الحب التى يراقبها الأمين مقابل كواترينو (٢٤) لكل مكيال .

وبعد ذلك يأتى باعة الصوف الذين يشترون جلود الخراف من الجزارين ، ولديهم عمال يقومون بغسلها ، وينزعون عنها الصوف ويدبغونها . ولكن هؤلاء لا يهتمون بغير جلود الأغنام ، غير أن جلود الماعز والأبقار تدبغ فى مكان آخر ؛ لأن مهنة هؤلاء تقوم وحدها . وبعدئذ يأتى صناع القفاف والحبال والقيود التى تعقل بها قوائم الخيول حسب العادة المتبعة فى أفريقيا ، وتتجاوز دكاكينهم مع دكاكين النحاسين .. وبجوار صناع المكاييل نجد صناع أدوات حلج الكتان والصوف .. وفيما وراء ذلك نجد سوقا كبيرة فيها أناس من مختلف المهن ، ومن هؤلاء البرادين الذين يبردون الأدوات الحديدية وركابات السروج والمهاميز لأنه ليس من عادة الحدادين برد مصنوعاتهم .

وبعد هذا نشاهد العمال المعلمين الذين يعالجون الخشب ولكنهم لا يصنعون سوى أشياء كبيرة مثل المحارث والعربات ودواليب الطواحين وسواها من الأشياء الدارجة الاستعمال ، ثم نصادف الصباغين الذين أقاموا دكاكينهم قرب النهر وفى سوقهم عين بديعة يغسلون فيها

شلل الحرير . وبعدهم يأتى البياطرة ، ومن ثم نصادف الصنّاع الذين يشتون أقواس الفولاذ على راشقات السهام . وأخيرا نجد العمال الذين يقومون بصقل الأقمشة وهنا تنتهى أسواق قسم من المدينة ، أى الأسواق الواقعة فى الغرب . وكان هذا القسم فى الماضى ، كما سبق وقلنا مدينة متفردة قامت بعد تلك التى شيدت على الطرف الآخر من النهر أى إلى الشرق . (٣٥)

تومبوكتو :

اسم هذه المملكة حديث العهد ، فهو اسم مدينة بناها ملك يدعى منسي سليمان سنة ٦١٠ للهجرة . (٣٦) على مسافة ١٢ ميلا من أحد فروع نهر النيجر .. (٣٧)

وبيوت تومبوكتو عبارة عن أخصاص مصنوعة من أعمدة خشبية مطلية بالطين وسقفوها من القش . ونجد فى وسط المدينة جامعا مبنيا بالحجارة المنحوتة مع ملاط من الكلس تم بناؤه على يد مهندس أندلسي ولد فى مدينة المانة ، والذى شيد أيضا القصر الكبير الذى يقطنه الملك .. (٣٨) وتكثر دكاكين الصنّاع والباعة ولاسيما الذين يعملون فى نسج القطن ، وتصل الأقمشة الأوروبية أحيانا إلى تومبوكتو بواسطة الباعة المغاربة .

ولا تزال عادة نساء المدينة لبس الحجاب ، باستثناء الإماء اللواتى يعين كل أصناف المأكولات . والسكان أغنياء جدا ولاسيما الأجانب الذين أقاموا فى هذه البلاد ، حتى إن الملك الحالي .. (٣٩) قد زوج اثنتين من بناته من أخوين من التجار نظرا لثرائهما . وفى تومبوكتو بضعة آبار ماء عذب ، فضلا عن ذلك تصل المياه عند فيضان نهر النيجر حتى المدينة بواسطة قنوات . وتكثر فى هذه المنطقة الحبوب والماشية مما يجعل استهلاك الحليب والسمن عظيما .

ولكن المنطقة تفتقر كثيرا للملح الذى يجلب إليها من تغازة ، الواقعة على مسافة ٥٠٠ ميل تقريبا من تومبوكتو .. (٤٠) وقد كنت فى هذه المدينة فى وقت كان فيه حمل الملح يساوى ٨٠ دوكا ، (٤١) ويملك الملك خزانة كبيرة من النقود ومن سبائك الذهب وتزن إحدى هذه السبائك ٠٠١٣٠٠ ليبرة . (٤٢) هذا ويعتبر البلاط الملكى جيد التنظيم للغاية ورائعا فعندما يذهب الملك من مدينة لأخرى مع حاشيته يمتطى جملا فى حين تقاد الخيول باليد من قبل السيفيين ، وعند المعركة يعقل السيفيون الجمال ويركب الجند خيولهم .

وإذا رغب إنسان فى مخاطبة الملك عليه أن يركع أمامه ويأخذ حفنة من التراب يحثوها على

رأسه وكثفيه وهذه هى طريقة التعبير عن الإجلال ، ولكن هذا الصنع لا يقوم به سوى الذين لم يسبق لهم مخاطبة الملك أو السفراء . ولدى الملك حوالى ٣٠٠٠ فارس وعدد غير محدود من المشاة الرماة المسلحين بالأنفوس المصنوعة من خشب الشمار البرى ..^(٤٣) ويرمون بسهام مسمومة ، ولا يحارب الملك سوى جيرانه من الأعداء وأولئك الذين لا يدفعون له الجزية . وإذا كسب معركة من المعارك فإنه يقوم ببيع غنائه فى تومبوكتو حتى أولاد الأسرى الذين غنمهم فى المعركة .

هذا ولا يولد فى هذه البلاد من الخيل سوى صفار الرهاوين ، أى البراذين ، وهى التى يستخدمها التجار فى أسفارهم ورجال الحاشية أثناء تجوالهم فى المدينة ، أما أصائل الجياد فتأتى من المغرب على شكل قوافل بعد مسيرة تستغرق عشرة أو اثنى عشر يوما . ويشترى الملك العدد الذى يروق له ويدفع الثمن المناسب .

وهذا الملك هو العدو للدود لليهود ، ولا يريد أن يقيم أحد منهم فى بلده ، وإذا بلغه أن تاجرا مغربيا يتردد عليهم أو يتعامل معهم صادر أمواله . ويوجد فى تومبوكتو عدد كبير من القضاة والفقهاء من العلماء الذين يعينهم الملك جميعا وهو يسبق على رجال العلم النعم ويوليهم مكانا ساميا . وتروج تجارة عدد كبير من المخطوطات المجلوبة من أقطار المغرب ، فسوق تجارة الكتب أوسع الأسواق رواجاً .

ويتداول الناس قطع التبر النقية عوضا عن النقد المسكوك ، أما بالنسبة للسلع الرخيصة فتستعمل الكوريات ..^(٤٤) أى القواقع المجلوبة من بلاد فارس وتبلغ قيمة كل ٤٠٠ قطعة من هذه القواقع أى الودع دوكا واحدة ..^(٤٥) وست دوكات وثلثان من عملتهم تساوى أونسا رومانيا من الذهب ..^(٤٦)

ويتصف سكان تومبوكتو بطبيعتهم البشوشة . ومن رسمهم التجوال فى المدينة ليلا بين الساعة الثانية والعشرين والواحدة صباحا ، وهم يقرعون آلاتهم الموسيقية ويرقصون ، ويعمل فى خدمة سكان المدينة الكثير من الرقيق من رجال ونساء .

وتعرض هذه المدينة كثيرا لخطر الحريق وخلال وجودى فيها فى الرحلة الثانية ..^(٤٧) احترقت المدينة فى مدة خمس ساعات . ولكن الريح كان عنيقا ، وأخذ النصف الآخر من سكان المدينة يخلون ممتلكاتهم خوفا من أن يمتد الحريق لباقى المدينة . ولا نجد حول تومبوكتو أى بستان أو مزرعة أشجار مثمرة ..^(٤٨)

خاتمة كتابه :

« ذلك إجمالا ما رأيته ، أنا حناليون ، من خير ومن جدير بالتذكّار ، في كل أفريقيا التي تجولت فيها من طرف لآخر . وقد قمت بتسجيل كل الأشياء التي تستحق الذكر كما رأيتهما يوما فيوما . أما ما لم تتح لى فرصة رؤيته فقد أخبرت عنه بصدق معتمدا على أشخاص موثوقين ، ثم رتبت هذه المذكرات على أفضل شكل حسب الإمكان .. وأخيرا صنفت منها مؤلفا أثناء وجودى فى روما بتاريخ العاشر من آذار عام ١٥٢٦ من ميلاد المسيح . وهكذا ينتهى كتاب حناليون ، المولود فى غرناطة والناشئ فى بلاد المغرب » .



الحواشى

- (١) أى عام ١٣٩٩ وهو العام الذى كتب فيه هذا البحث .
- (٢) بحيرة غير معروفة لأن أعالي النيل لم تكن محددة بدقة عند الجغرافيين العرب فى القرن السادس عشر .
- (٣) مضيق جبل طارق أو بحر الزقاق .
- (٤) وادى نون وادى مأهول وتجارى ، يعتقد أنه عند منطقة إيفني فى مقابل جزر الخالدات (كنارى) .
- (٥) وهنا يجب أن نلاحظ أن الأوربيين كانوا يعرفون حينذاك أن البرتغاليين قد طافوا حول القارة السوداء لبلوغ الهند ، لكن هذه المعلومات لم تكن قد انتقلت للعرب بعد بسبب الحصار المحكم حول سواحلهم فى تلك الأيام من قبل الأساطيل البرتغالية .
- (٦) يعتقد بعض الجغرافيين العرب فى ذلك العصر أن الأطلس هو سلسلة مستمرة تمتد من بحر الظلمات حتى العقبة الكبرى ، جنوبى خليج السلوم ، وجبل معيز الذى يشير إليه المؤلف على مسافة ٥٠٠ كيلو متر تقريبا من الإسكندرية لم يمكن التأكد منه ، وربما كان يقصد به الجبل الأخضر فى إقليم بركة .
- (٧) الواقع هو أن اللاتين كانوا يقصدون بإقليم نوميديا الكتلة الجبلية التى تؤلف تقريبا حوض نهر المجردة ، لأن السهل الشرقى ، فى منطقة قرطاج ، كان مأهولا بالأفرى . أما الأقوام التى كانت تعيش إلى الغرب من ذلك حتى ساحل المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) فكانت مشمولة تحت اسم مورى ، ومنه جاءت تسمية موريتانيا ، وكانوا يسمون كل السكان المحليين الذين يعيشون فى الهضاب العليا الجزائرية وما وراءها ، ابتداء من الساحل التونسى حتى الساحل الأطلسى ، بالمجتولين أو المجتول بالفرنسية . أما النوميديون فهو اسم يظهر أنه من أصل بربرى ، ولكنه اختلط منذ القديم مع العبارة الإغريقية Nomodes التى يقصد بها الرعاة والبدو ، حتى إن هذه التسمية المحلية للقبائل الجبلية المستقرة اتسعت ولاسما فى الكتابات الأدبية ، فشملت الأقوام الرعاة ، وليس هناك من وثائق قديمة معروفة تتكلم خاصة عن الواحات لهذا احتفظت باسم بلاد المجريد أى بلاد سعف النخيل .
- (٨) ويقصد بها واحة الخارجة التى تتصل حاليا مع النيل بواسطة خط حديدى يصل الواحة المذكورة بوادى النيل وتقع على مسافة ١٠٦ أميال (١٧٠ كم) من نهر النيل .
- (٩) لم يقصد بليبيا فى ذلك العصر المناطق الصحراوية الحالية ، بل كل البلاد التى يقطنها العرق الأبيض والواقعة بين النيل والمحيط الأطلسى .
- (١٠) لم تبلغ منطقة ولاته فى موريتانيا الحالية ، والتى لم تكن مملكة ، أقول لم تبلغ ساحل المحيط مطلقا .
- (١١) ويقصد بذلك خليج غينية .
- (١٢) لقد كانت ضفاف بحيرة تشاد مأهولة يقوم من الزنوج يدعون « ساءو » .
- (١٣) أى من مرتفعات هضبة « فوناجالون » فى جمهورية غينيا الحالية .
- (١٤) أى جنه ، وهى مدينة فى جمهورية مالى الحالية على نهر النيجر وتقع فى منتصف الطريق بين تومبوكتو والعاصمة .
- (١٥) تدل هذه الجملة فى إذا كانت ترجمتها عن النص الأصلي صحيحة - على أن المؤلف لم يقم بهذه الرحلة أو أن الأمر اختلط عليه .

- (١٦) أى مضيق باب المندب واليمن .
- (١٧) ولعله يقصد بذلك منطقة هرر .
- (١٨) والواقع أن بجاية سقطت بيد المحفصيين ملوك تونس الذين انتزعوها من سلاطين تلمسان الزيانيين في عام ١٣٦٠ م . وظلت تابعة لهم إلى أن احتلها الأسبان في شهر ماي (أيار) ١٥٠٩ وكانت في معظم الأحيان تحت حكم الأمراء المحفصيين ، وكانت تتمتع باستقلال كان يتحول أحيانا إلى تمرد على سلطة حكومة تونس المركزية .
- (١٩) يذكر الحسن الوزان في آخر بحثه عن أسفى أنه قصد هذه المدينة المذكورة عام ٩٠٦ هـ أو ١٥٠٠ م ، وكان عمره حينئذ ١٢ سنة .
- (٢٠) وهذا العم كان يدعى أحمد بن على ، والمشهور باسم حمادوش بن فوهون . وبتاريخ ١٦ تشرين الأول من عام ١٤٨٨ م منح ملك البرتغال حنا الثانى هذا الشخص منصب قائد أسفى ، التى كانت خاضعة فعلا للحماية البرتغالية من قبل سنة ١٤٨١ . وفى أيلول ١٤٩٨ قررت الحكومة البرتغالية التخلص من القائد أحمد المتقدم فى السن وتنصيب أخيه عبد الرحمن وأوفدت بالسراى مندوبا لشرح موقفها للقائد أحمد . ولكن الأمور لم تتم بسلاى إذ حدث شجار أدى بعد نزاع عنيف إلى أن يقتل عبد الرحمن شقيقه بأن اخترق جسمه برمح ولكن الجمهور نادى بعبد الرحمن أميرا ، كما أن القائد السابق الذى تصالح مع ابن أخيه ناشد الجمهور طالبا منه الطاعة لعبد الرحمن .
- (٢١) مدافع جنوبية منفردة الفوهة شاع استعمالها فى القرن السادس عشر .
- (٢٢) لقد جاء قسم من هذا الأسطول من جزر ماديرا بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٥٠٧ وقدمت أربع سفن من البرتغال فى مطلع شهر كانون الثانى ١٥٠٨ ، ويبدو أن عدد أفراد هذه الحملة لم يتجاوز ١٥٠٠ مقاتل . وظل الأسطول مرابطا تجاه أسفى مدة ثلاثة أشهر .
- (٢٣) ولا تزال نجهل تاريخ احتلال أسفى بدقة ولكن استنادا إلى هذا النص فقد حدث بعد وصول الأسطول بقليل .
- (٢٤) واسمه نونو فرناندز دواتيد
- (٢٥) ويبدو أن عرض هذه الأحداث قد كتب نقلا عن ذكريات سردها أحد حكام أسفى وهو على بن أوشبان إلى محمد الحسن الوزان مباشرة .
- (٢٦) أو منارة الكتبية الشهيرة ، أما منڈة الرباط فلاتزال قائمة وتدعى برج حسان ، وترتفع ٤٤ مترا ، ويمسحها موقعها منظرا بديعا ويبلغ عرض درجاتها المترين .
- (٢٧) الرباط يعنى عند مسلمى المغرب ما يعنيه الثغر عند مسلمى المشرق ، أى الموقع المحصن الذى يرباط فيه المجاهدون المتأهبون على طول الجبهة الأرضية والبحرية لأرض الإسلام وقد نشأ الرباط على الضفة اليسرى لنهر أبو الرقاق . أما رباط سلا على الضفة اليمنى فقد نشأ كرأس جسر لمحاربة قبيلة بغوارته المنشقة عن الإسلام . وفى أواسط القرن التاسع الهجرى كان يضم الرباط والرباطات المجاورة قرابة ١٠٠ ألف مرابط فى وقت واحد ، وظلت المنطقة المجاورة للرباط تدعى بلد المجاهدين . ويبدو أن قيام مدينة فى هذه المنطقة إنما يعود للخليفة عبد المؤمن الذى قمع آخر تمرد قامت به بغوارته سنة ١١٤٩ م والى عجز المرابطون عن إبادة فى حملة ١٠٥٩ - ١٠٦٠ م . وقد شيد المدينة فى موقع قصر كان يخص بنى كنانة وأطلق عليها اسم المهديّة تخليدا لذكرى المهدي بن تومرت . ولكن غلب عليها اسم رباط الفتح وذلك بسبب النصر الذى أحرزه على قبيلة بغوارته . وفى ١١٥٠ م جلب عبد المؤمن إليها الماء من عين غابولة الواقعة إلى الجنوب منها على مسافة ٢٠ كم . وبعد ٣٥ عاما قام حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور وخطط مشروعا لنظام عسكري فيها قبل أن يجتاز البحر

إلى أسبانيا حيث كسب معركة الزلاقة الشهيرة (آلاكوس) في ١٩ تموز ١١٩٥ وأوجد في الرباط مركزا لتجميع الجيوش وحصونا ومراحل تمتد حتى القصر الصغير بين سبتة وطنجة . وبنى في المدينة حصن الفرح الذي لا تزال نرى حتى اليوم بابه الرائع الذي لا يزال يدعى حتى اليوم باب الأوداية وكذلك الجامع الكبير الذي لا زالت منارته قائمة أو برج حسان . هذا كما أعاد بناء أسوار سلا حيث بنى مدينة ملكية ودينية وعسكرية لأن الرباط كانت مدينة التجار والصناع . وقد سمحت الموارد الضخمة التي غنمها من حملته المظفرة في أسبانيا بين ١١٩٥ - ١١٩٨ بتمويل كل هذه المشاريع وسواها في مملكته . وإذا كان عام ١١٩٧ م يعتبر تاريخ تأسيس الرباط فإن تنفيذ كل هذه المشاريع العمرانية فيها استغرق زمنا طويلا نوعا ما .

(٢٨) لقد تم كشف المدينة الرومانية سالاكولونيا ، التي خلفته بلدة بونية وربما فينيقية ، وذلك بصورة جزئية في سلا الحالية .

(٢٩) في ٢١ كانون الثاني ١١٩٩ م .

(٣٠) أى بين ٢ نيسان ١٥٠٩ إلى نيسان ١٥١٠ م .

(٣١) أى القيصرية .

(٣٢) عملة إيطالية في ذلك العصر تعادل دينارا .

(٣٣) أى ما يعادل ٣٤ و ٥٨ ليتر .

(٣٤) سنت من الذهب .

(٣٥) الأولى هى ما يسمى اليوم بالمدينة والتي شيدها إدريس بن إدريس عام ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م وسماها العالية ، وسميت مدينة القرويين بسبب سكنى ٣٠٠ أسرة من القروان أقامت فيها بعد تأسيسها بقليل . أما الثانية فيبدو أنها شيدت على يد إدريس بن عبد الله ابتداء من خريف عام ١٧٣ هـ أو ٧٨٩ م وسميت فاس ، أو مدينة الأندلسيين بعد تزوج ٤٠٠٠ أسرة من قرطبة بعد ثورة الربض الدامية عام ٢٠٢ هـ أو ٨١٧ - ٨١٨ م . وبعد أن تلاحت المدينتان في واحدة بعد انتصار المرابطين عام ١٠٧٠ م لم يعد الناس يميزون سوى عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين . ولكن منذ بضعة قرون لا تزال تحتفظ الأخيرة باسم عدوة ، ولازال جامعها يحمل اسم جامع الأندلسيين ، مثلما احتفظ جامع الضفة الأخرى باسم جامع القرويين .

(٣٦) أى ١٢١٣ - ١٢١٤ م . ومما يجدر ذكره أن منسى سليمان هذا حكم فعلا من عام ١٣٣٦ إلى ١٣٥٩ م وابن بطوطة هو أول من ذكر اسم تومبوكتو عام ١٣٥٤ م .

(٣٧) تشير الروايات إلى أن تومبوكتو شيدها الطوارق الذين أقاموا فيها مخزنا للبضائع عهدوا بحراسته إلى عبد أسود اسمه تينوتو ومعناه « السرة » وتحول هذا الاسم عند الزواج الى تونبوتو وعند العرب إلى تومبوكتو . وقد قصدها كثير من التجار المسلمين والعلماء من ولاته كي يقيموا في هذه المدينة التي راحت تنمو بسرعة . وقد احتلها الامبراطور كنان موسى أثناء عودته من الحج سنة ١٣٢٤ م بعد أن قدم من غاو التي قدمت ولاءها ، بيد أن الطوارق استردوها بقيادة أمينوكال عقيل أغا ميلول سنة ١٤٣٣ م ونصبوا عليها أميرا من صنهاجة شنقيط . وفي هذا العصر لم يكن الطوارق من قبيلة تادمكت قد هبطوا بعد من مرتفعات أدرادرس أفوراس ، وكانت هذه المنطقة حتى ولاته ذاتها تحت حكم قبائل المسوفة المثلثين الذين يعودون لأصل طارقي زناتى . والغالب على الظن أن عقيل تنتسب لهذه العشيرة وظلوا محتفظين بالزعامة حتى عام ١٤٦٩ م حيث جاء الزعيم الزنجى من قبيلة سونغاي واجتاح مدينة تومبوكتو .

(٣٨) ويدعى المهندس المهارى هذا إسحق الساحلى الغرناطى الذى استصحبه كنان موسى معه من مصر أثناء

مروءه بالقاهرة وإليه ينسب أيضا بناء مسجد غامو ، والمسجد الذى بناه كئكان موسى تهدم فيما بعد وأعاد بناءه القاضى العقيل بن محمود أما القصر فلا وجود له حاليا .

(٣٩) لم يكن هناك ملك فى تومبوكتو بل مندوب أو عامل امبراطور غامو الذى كان يحمل لقب تومبوكتو كوى . والعامل الذى كان موجودا أثناء زيارة محمد الحسن الوزان كان يدعى عمر بن محمد الندى والذى ولاءه اسكنيا الحاج محمد عام ١٤٩٣ م وتوفى سنة ١٥٢١ وكان أحد أكبر ولاء الامبراطور إذ كان يتمتع بالعديد من الصلاحيات وخاصة امتلاك الطبل وهو رمز القيادة العليا .

(٤٠) ٨٠٠ كم ويعتقد أن تغارة المذكورة تقع إلى الشمال من موريتانيا الحالية حيث يكثُر الملح الصخرى .

(٤١) أى حوالى ١٦٨ و ١ جنيه من الذهب لكل أربعة ألواح من الملح .

(٤٢) أى حوالى ٤٤٠ كيلو جرام حسب اللييرة أو الرطل المصرى . وذكر البكرى عام ١٠٦٧ م ، وجود كتلة كبيرة من التبر عند ملك غانا . ويوضح الإدريسي فى سنة ١١٥٤ م أن هذه القطعة كانت تزن ٣٠ رطلا ، وكان الملك يربط بها حصانه . ومما لا ريب فيه أن هذه القطعة هى التى تكلم عنها ابن خلدون والنسب باعها الملك الماند يتنج ماريديات الثانى (١٣٥٩ - ١٣٧٤) لتجار مصريين وكانت هذه الكتلة تزن ٢٥ قنطارا ، وهكذا يبدو أن الرقم الذى يذكره الحسن الوزان مبالغ فيه .

(٤٣) نبات غير معروف بدقة ولكن قد تصنع الأقواس فى المناطق الجنوبية من السودان من خشب البامبو .

(٤٤) واسمها اللاتينى العلمى C. annulus و cypraea monetas وهى عبارة عن ودع تأتي بالحقيقة من جزر الملديف فى المحيط الهندى

(٤٥) أى أن الكورية الواحدة تعادل تقريبا ٣ سنت من الذهب .

(٤٦) الأونس يعادل ٢٨,٢٥ جراما .

(٤٧) وربما كان ذلك فى سنة ١٥١٢ م .

(٤٨) يوجد فى الوقت الحالى بساتين واقعة قرب الآبار غربى المدينة .

